الهوية و الثقافة بين الذاكرة و الخطاب

أ.مريم حيسو، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية أكدال-الرباط، جامعة محمد الخامس- المغرب

Identity and culture between memory and discourse

Mariam Hissou

faculty of legal economic and social sciences- Agdal-Rabat

Mohammed V University-Morocco

ملخص: يعيش الفرد في وسط يتطلب منه أولا تعلم رموزه، فهو يعيش في مجتمع له عادات و تقاليد منذ صغره لتصبح بعد ذلك جزءا من سلوكه. ينتج عن تواصل الأفراد فيما بينهم إنتاج خطاب يعبر عن هوياتهم، يتم في اطار الثقافة التي تعيش ضمنها المجموعة والتي تعتبر من العوامل المهمة المرتبطة بالذاكرة. لذلك يجب تحديد المعنى الذي تنتجه هاته الهويات ودور الذاكرة والخطاب بتفاعل فيما بينها، بدراسة كيف يتم إنتاج المعاني الاجتماعية وفهمها انطلاقا من التقنيات التي توفرها السوسيولوجيا التأويلية.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الثقافة، الخطاب، الذاكرة، المعنى.

Abstract: The individual lives in a middle where he first needs to learn his symbols, he lives from a young age in a society with customs and traditions and then become part of his behavior. The communication between individuals results a social discourse that reflects their identities, it takes place in the framework of culture which the group lives and which are important factors related to memory. Therefore must be determined the meaning produced by these identities and the role of memory and discourse in interaction between them, by studying how social meanings are produced and understood from the techniques provided by interpretative sociology.

Keywords: Identity, culture, discourse, memory, meaning.

مقدمــة:

يعتبر موضوع الهوية في جانبيها الفردي والجماعي ذا أهمية في ارتباطه بالذاكرة والثقافة. تشكل الذاكرة رابطا بين الماضي والحاضر إذ تحمل في طياتها مجموعة من الذكريات وتعبر الهوية عن الانتماء إلى مجتمع ما يتميز بثقافة تتفاعل مع الآليات التي تحملها ذكريات الماضي وتنتج تأثيرا في حاضر الفرد والجماعة ومستقبلهما.

يعرف معجم التفكير السوسيولوجيا الهوية بكونها: "تشير-في معناها العام- إلى قدرة فرد أو جماعة على أن يتعرف إلى ذاته ويتعرف إليه الآخرون، فهي تتضمن معنى الديمومة والتماسك داخل تعددية الرمزية والاجتماعية". يمر الوعي بالذات عبر الآخرين ومعهم بحيث تتجلى العلاقة بين ما هو فردي وما هو اجتماعي كخاصيتين لصيرورة واحدة، لكن ينفرز الوعي بهوية ذاتية لها قدر من الإحساس بمعنى الفرادة والخصوصية الشخصية، لما تتحول الذات هنا إلى نتاج عملها الهويتي الذي يهدف إلى بلورة تلك الهوية كمشروع يتحرك لأجله ويطالب به الفاعل الاجتماعي(عادل بن الحاج رحومة،2010، ص137).

جعل إدراج تحليل الخطاب في ميدان علم الاجتماع حظوظا راجحة لهذا العلم في اكتشاف نماذج من التفكير أشمل وأرجح من النماذج التي يستخرج فيها المعنى من البنية اللغوية وحسب، بل أصبح تحليل الخطاب ذا موقع مشهود في مجالات متعددة متنوعة منها العلوم الاجتماعية، وأصبح لكل مدخل من مداخل تحليل الخطاب إطار نظري ومنهجي يتضمن مقدمات فلسفية تبحث في أهمية اللغة في البناء الاجتماعي ونموذجا نظريا يحاول تفسير العلاقات القائمة بين اللغة بوصفها ممارسة وبين غيرها من الممارسات الاجتماعية والثقافية، ودليلا منهجيا لمقاربة موضوعات متنوعة بأسلوب مختلف ووسائل فنية للتحليل(عبد الرحمان بودرع، 2015، ص34-35).

من جهة أخرى، يهدف علم الأنتروبولوجيا إلى توسيع فضاء الخطاب الإنساني والذي يجده غيرتز يتناسب مع المفهوم السيميائي للثقافة، بحيث أن الثقافة بما توصف به كونها شبكة من أنظمة الإشارات للتفسير والتأويل هي نسق يمكن من ضمنه اجراء توصيف كثيف قابل لفهم أحداث مجتمعية أو سلوكات أو مؤسسات اجتماعية أو سيرورات عملية(كليفورد غيرتز، 2009، ص98).

يمكن بالتالي الوصول إلى فهم ثقافة ما عن طريق الفهم باعتبار أن غيرتز ينظر إلى تحليل الثقافة كعلم تحليلي يبحث عن معنى، إذ يبحث عن شرح التعبيرات الاجتماعية وإجلاء غوامضها الظاهرة عن السطح. (كليفورد غيرتز، 2009، ص82).

منهج الدراسة:

تمت دراسة عدد من النصوص النظرية التي تهتم بالذاكرة والخطاب الاجتماعي ونظرية التوصيف الكثيف (كليفورد غيرتز، 2009، ص79-128) لكليفورد كيرتز Geertz Clifford. يقدم علم الاجتماع الأنثروبولوجيا التأويلية لفهم وتأويل الأفعال التي يقوم بها الأفراد. يتعلق السؤال الذي يجب طرحه حسب غيرتز بمغزى هذه الأشياء وماهيتها وما الذي يجري التعبير عنه عندما نقوم بها وكيف أن التوصيفات المطولة تكتسب أهميتها في مطابقتها لمقتضى الحال. يتطلب التأويل الثقافي البقاء أقرب إلى أرض الواقع كونه ليس ذا صفة تنبؤية، بالتالي يتطلب الأمر الكشف عن الدلالات الكامنة خلف أفعال الأشخاص الذين نتابعهم والذين سماهم غيرتز ب "المقول" في الخطاب الاجتماعي، بالتالي بناء نظام للتحليل تبرز في اطاره المميزات المكونة

لهذه البنى، أي ما يتعلق بوصفهم ما هم عليه وذلك بهدف استخلاص استنتاجات كبرى من وقائع صغرى كثيفة النسج بحكم أن أشكال المجتمع تشكل مادة ثقافية.

مشكلة البحث:

تقوم هذه الدراسة بتحليل موضوع دور الهوية في إنتاج المعاني بتفاعل كل من الخطاب والذاكرة. تتكون الهوية من مجموعة من العناصر في اطار الثقافة التي تتطور وتتجدد باستمرار. بالتالي، يجب تحليل هاته الهوية وتأويل العناصر المرتبطة بها من خلال المنهج الوصفي.

أهمية البحث:

تنبع أهمية الدراسة من خلال رؤية أنه ينتج عن تواصل الأفراد خطابات تعبر عن هوياتهم، لذلك يجب البحث عن الدلالات الكامنة خلف أفعال الأفراد انطلاقا من الخطاب الذي يعكس هوياتهم ودور الذاكرة في تشكيل المعاني. يتم انطلاقا من ذلك دراسة كيف يتم إنتاج هاته المعاني الاجتماعية وفهمها انطلاقا من التقنيات التي توفرها السوسيولوجيا التأويلية.

هيكلة البحث:

أقدم من خلال الورقة دراسة لتفاعل كل من الهوية والثقافة مع موضوع الخطاب، وما تقدمه الذاكرة من القدرة على حفظ مجموعة من المعطيات الممزوجة بالأحاسيس والتي تمثل جزءا من تكوين هوية الإنسان من خلال نقطتين: أولا: الهوية والمشاعر، بين تجليات الذاكرة والثقافة، ثانيا: تأويل المعنى في الخطاب الاجتماعي.

أولا: الهوية والمشاعر، بين تجليات الذاكرة والثقافة

تشكل الذاكرة القدرة التي يمتلكها الإنسان لاسترجاع المعلومات واستحضارها وهذه القدرة هي مركز قوة بالنسبة لكل إنسان له هويته الخاصة. تنشأ الذاكرة من خلال عملية تفاعل تدريجية بين الفرد والغير والمحيط، وتشكلت خلال هذا التفاعل هوية الإنسان انطلاقا من ذاكرته الفردية من جهة والذاكرة الجماعية التي تشمله مع المحيط الذي يعيش فيه من جهة أخرى.

تتحدد الهوية عند الأفراد على أنها مصدر معنى وتعبير، حيث يتجلى المعنى فيما يعينه الفاعل رمزيا كهدف لفعله بغض النظر عن الأدوار الاجتماعية المرسومة له، معيارا من قبل المجتمع لتحدد ما ينبغي أن يكون. تحدد الأدوار الوظائف وتعبر عن المنظومة الاجتماعية التي ينتمي إليها الناس، في حين ترعى الهويات المعنى الذي يطلبه الفرد لذاته وبذاته حتى وإن تجاوزت حدود الأدوار الاجتماعية وتباعدت عنها، بل قد تفرضها أحيانا هي والأنساق الاجتماعية التي تحتضنها(عادل بن الحاج رحومة، 2010، ص137-138).

يبين معجم أكسفورد الإنجليزي أن الاستعمالات الأولى لمفهوم الهوية الشخصية في ما يتعلق بالفرد لم تحصل إلا في القرن السابع عشر (طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس، 2010، ص701). لمفهوم الهوية أشكال متعددة، لذلك يرى الكاتب أنه في سبيل تقصي جوانبه المختلفة يجب التموقع على الصعد المختلفة التي يتبدى فيها المفهوم الهوياتي: الفرد، الزمرة، المجتمع وهناك تتم المعاينة في كل مكان نفس التوجه في التحليل (كاترين آلبيرن وجان كلود روانو بوربالان، 2010، ص5).

تتشيد الذات ضمن العلاقة مع المحيط ومع الآخرين في صميم زمر ضيقة أو واسعة، تعاقدية أو مفروضة، حيث تتميز المجتمعات المعاصرة بتزايد دائم لزمر الانتماء المتعددة الحقيقية أو الرمزية التي ينضم إليها الأفراد (كاترين آلبيرن وجان كلود روانو بوربالان، 2010، ص9). يتجذر شعور استمرارية الذات في الذاكرة عندما يشكل هذا الشعور نقصا يصبح الاختلال غير بعيد ووحدها الهوية الاجتماعية العنصر الأكثر استقرارا لتحديد استمرارية الشخص (Vincent de GAULEJAC, p.177).

تتخذ هوية الفرد مجموعة من المواقع انطلاقا من الدور الذي يقوم به. يصدر المعنى عن فعل الفرد بغض النظر عن الدور الموكل له، ويشكل مصدر ما ينبغي أن يكون من طرف المجتمع. فيكون الاختلاف في أنه انطلاقا من الدور تتحدد الوظيفة، أما المعنى الذي تنتجه هوية الفرد باعتبارها مصدره لا يأخذ بعين الاعتبار دوره الاجتماعي.

يتميز مفهوم الهوية الثقافية في حقل العلوم الاجتماعية بتعدد معانيه و انسيابيته. (دنيس كوش، 2007، ص148). تتميز هوية الفرد الاجتماعية بمجموع انتماءاته في النسق الاجتماعي، كما تمكن الهوية الفرد من أن يحدد موضعا لذاته ضمن هذا النسق، وأن يحدد الآخرون موضعه اجتماعيا. إن كل مجموعة لها هوية تتناسب مع تعريفها الاجتماعي، إذ لا تتعلق بالأفراد وحسب، يمكن هذا التعريف من تحديد ضمن الكل الاجتماعي. تعبر الهوية الاجتماعية عن استدماج واقصاء في نفس الآن، أولا تحدد المجموعة التي أعضاؤها متماثلين من ناحية ما وثانيا تميزها عن المجموعات الأخرى التي يختلف أعضاؤها عن الأولين، من الناحية ذاتها. انطلاقا من هذا المنظور، يقول الكاتب أن الهوية تبدو ككيفية تصنيف للتمايز نحن/هم قائمة على الاختلاف الثقافي (دنيس كوش، 2007، ص149).

تتعدد أشكال الهوية انطلاقا من موقع الفرد إن كان في مجموعة أو مجتمع أو منفردا. يساعد هذا التموقع على تشييد الذات التي تتأثر بمجموعة الانتماء إن كانت كبيرة أو صغيرة، ثم أيضا حقيقية أو رمزية (بمعنى أن الهوية تنتمي لجماعة يربط بينها مشاعر نحو موضوع معين دون معرفة أفرادها بشكل شخصي)، فتقوم الهوية الاجتماعية بخلق نوع من توازن الذات للاستمرارها في الذاكرة.

وسواء تكلمنا عن الهوية الثقافية أو الهوية بشكل عام، فهي ترتكز على مشاعر الانتماء والقوة الداخلية والإحساس بالمسؤولية المشتركة لتحقيق هدف معين. فتتشكل الهوية من مجموع المشاعر التي يحس بها الفرد بالتكامل بين مجموع العناصر المادية و المعنوية فيصبح بالتالي لكل فرد هوية متمايزة عن الآخر. لذلك فإن المشاعر لها دور مهم انطلاقا من الموقع الذي تتخذه كونها عاملا محركا للهوية سواء كانت فردية أو جماعية.

إن مشاعر الحنين إلى الماضي هي لبنات بناء شعورية بمعنى أنها يمكن أن تفهم على نحو أكثر إيجابية باعتبارها ذكريات تمدنا بالقوة وهي مشاعر يلجأ إليها المهاجرون لتساعدهم في عملية إنشاء موطن حيث هم في اللحظة الراهنة. لا تعدو مشاعر الحنين إلى الماضي كونها ذكريات عن خبرات ماضية يضفي عليها خيال المرء من موقعه الراهن صبغة الألفة والحميمية. يرى الكاتب أن مشاعر الحنين هذه لا توجد فقط في حياة المهاجر، بل في حياة كل شخص. وتوجه هذه المشاعر عملية إنشاء الموطن في الحاضر لأن الفرد يسعى لتعزيز مشاعر الحميمية والألفة التي يألفها(غسان الحاج، 2008، ص15).

كما أن مشاعر الحنين إلى الماضي في بلد الانتشار، باعتبارها ذكرى لما كان هناك في الوطن، يجب ألا تعامل دائما على أنها شكل من أشكال مرض الحنين إلى الوطن. يشير مرض الحنين إلى الوطن كما يدل اسمه إلى مرض ما هو حالة تقوم فيها الذكريات التي يحملها الفرد عن وطنه بإضعاف مقدراته وبإنتاج وضع من السلبية التي تمنعه من توظيف إمكاناته في البيئة التي يعمل فيها. ولهذا يجب عدم الخلط بين مفهومي الحنين إلى الماضي ومرض الحنين إلى الوطن، لأن مشاعر الحنين إلى الماضي يمكن أن تفهم على نحو أكثر إيجابية باعتبارها ذكريات تمدنا بالقوة. وفي الغالب يكون اختزال كل مشاعر حنين المهاجر إلى الماضي إلى مجرد شعور واحد "بالألم" مسترشدا بنزعة "التعاسة" في الدراسات التي تتناول الهجرة وتميل إلى تصوير المهاجرين كأشخاص سلبيين تعساء، مهما كلف الأمر(غسان الحاج، 2008، ص10).

تنقسم مشاعر الحنين إلى الماضي إلى سلبية وايجابية، وتسمى السلبية بمرض الحنين إلى الوطن التي يتم ربطها عادة حسب الكاتب بالمهاجر والذي يتم اختزال حنينه إلى الماضي إلى شعور الألم. إن الشعور عبارة عن احساس ينتقل إلى حالة عاطفية تحيط بالفرد عندما يحن إلى الماضي، فيبحث في ذاكرته عن لحظات تمكنه من الإحساس بالفرح، أما في حالة مفهوم "مرض الحنين إلى الوطن" فيصبح العكس هو محاولة الشخص نسيان ما يرتبط بذاكرته لأن تلك الذكريات تتسبب له في أحاسيس مؤلمة، وبالتالي يفقد الإحساس بقيمة انتماءه في تلك اللحظة أو بقيمة الهوية كمصدر للمعنى.

تتكون هاته المشاعر انطلاقا من الأحداث المجمعة في الذاكرة والمعاشة في اطار ثقافة، العائلة والمجتمع. أوضحت عالمة الاجتماع آن مكسل ما تتصف به الذاكرة العائلية من تعقيد والتي تشكل مكونا أساسيا في تشييد الهوية. تميز آن مكسل ثلاث طرائق (كاترين آلبيرن وجان كلود روانو بوربالان، 2010، ص195-196) لتأثيرها: النقل (التبليغ) والتجربة الوجدانية والتأملية.

تحدد آن مكسل الأولى في "وظيفة الانتقال"، تفسر هذه الوظيفة وتقول أن الفولكلور العائلي الذي يتجسد في طقوس الطعام وطريقة الجدة في صنع الحلوى التي نعيد تطبيقها وكذلك كتاب الأغنيات الذي نحتفظ به وأداة رأينا جدنا وهو يعمل بها والتي سنعلقها على حائط المطبخ، كلها أشياء تقول مكسل لا تملك في الغالب أية قيمة بذاتها، لكنها تملك وظيفية في الحفاظ على موروث تتغذى منه ذاكرة الفرد، إذ تستقي الهوية مصادرها في صميم "نحن جماعية" عائلية، لابد لدلالاتها المرجعية حسب مكسل أن تدوم طويلا.

تخدم الذاكرة العائلية الهوية أيضا تقول مكسل عن طريق "وظيفة الإحياء" المرتبطة بالتجربة الوجدانية. يستدعي المرء حياته كطفل والتجربة المباشرة والحميمة لماضيه ضمن العائلة، أي العواطف والأحاسيس وتحتل فيها الذاكرة الحواسية مكانا هاما جدا من خلال الروائح والمذاقات والأصوات التي نستعيدها، والديكورات التي تحيل إلى لحظات ممتعة، وأيضا مؤلمة، لأن الذاكرة تستطيع إحياء أشكال المعاناة. تقصد مكسل هنا الذكريات الخاصة التي قدم عنها مارسيل بروست صورة شهيرة وهو يصف كيف أن مذاق قطعة حلوى يعيد من جديد بعث حياته كطفل في كمبري، حيث تؤسس هذه الوظيفة الثانية لما يمكن تسميته في نظر مكسل الهوية الحميمة الخاصة بكل واحد.

أخيرا الوظيفة الثالثة التي تدعوها مكسل ب "التأملية réflexivité"، تدفع إلى أن يستنفر المرء ذاكرته من أجل استخلاص درس ويحدد موقعه نسبة لعائلته، من أجل أن يقول "هذا جعلني أعاني، لذلك لن أفعله مع أطفالي"، أو على العكس، من أجل أن يحفظه بدوره وينقله... في هذه الحالة، يحدد المرء موقعه بالنسبة لماضيه لكي يناقش بشكل أفضل انخراطه في الحاضر وهويته الاجتماعية وأيضا الحميمية والوجدانية. تقول مكسل إنها وظيفة تشييد وتقييم لمصيره الخاص.

انطلاقا من الوظائف الثلاث التي قدمتها مكسل، رغم أن وظائف الذاكرة تقصد الفرد كعنصر رئيسي، إلا أنها ترتبط بنحن الجماعية بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال العائلة. ترتبط الأولى بالدور التي تقوم به إما طقوس أو أدوات أو ممارسات تم القيام بها في اطار العائلة والتي شكلت مصدرا أساسيا لذكريات أصبحت فيما بعد ذات معنى. أما الوظيفتين الثانية والثالثة فترتبطان مباشرة بالفرد، الثانية من خلال مشاعر الوجدانية التي تنتجها الذاكرة الحواسية انطلاقا من لحظات عاشها مع العائلة والتي تكون في أغلب الأحيان ايجابية. في حين أن الوظيفة الثالثة يقوم من خلالها الفرد بالاستفادة من تجربته داخل العائلة لتخدم هويته تجاه أسرته بنقل الأمور الجيدة التي عاشها وتفادي السلبية التي سببت له الألم.

تعمل الذاكرة كمحفز مفضل لتشكل الهوية الفردية، حيث تقوم الزمرة بتنشئة الفرد اجتماعيا ويأخذ الفرد هويته منها ولكن تسمح هذه العملية في الوقت ذاته بأن يتمايز عن محيطه ويؤثر به.

لا تظهر الهوية كتجاوز بسيط للأدوار والانتماءات الاجتماعية فيما يخص الفرد، إنما يجب تصورها ككلية دينامية تتبادل فيها هذه العناصر المختلفة التأثير من خلال التكامل أو الصراع. تنجم عن ذلك استراتيجيات هوياتية يميل الفرد من خلالها الدفاع عن اندماجه ضمن الجالية، في الوقت الذي يثمن فيه ذاته ويبحث عن تماسكه الخاص. (كاترين آلبيرن وجان كلود روانو بوربالان، 2010، ص9)

يتولد الإحساس بالألفة يقول الكاتب عن فضاء نستطيع فيه توظيف استعداداتنا الجسدية (Bodily Dispositions) إلى الحد الأقصى فضاء نشعر فيه بأننا نمتلك ما يمكن أن يدعوه بورديو "الهابيتوس" المناسب، يطلق بورديو على الهابيتوس اسم التاريخ المتجسد، لكن الهابيتوس يمكن أن يكون أيضا، وإلى حد ما ذاكرة متجسدة. يرى الكاتب أنه لا داعي للقول إننا لا نجد أن كل هابيتوس يمارس حياته ضمن فضاءات تطور فيها تاريخيا ويشعر فيها بالألفة والحميمية أكثر مما يشعر في غيرها(غسان الحاج، 2008، ص12).

كما يعتبر الإحساس بالجماعة مهما ليشعر المرء بأنه موجود في موطن أليف وحميم. فهو يتضمن وقبل كل شيء معيشة الفرد في فضاء يعتبر فيه أن من حوله "ينتمون إليه" ويشعر بأنهم يعتبرونه منتميا إليهم. والإحساس بالجماعة أساسا هو إحساس بالرموز المشتركة وبالأخلاقيات المشتركة وبالقيم المشتركة، والأهم من ذلك كله باللغة المشتركة. فالصورة المتخيلة للموطن هي فضاء يمتلك فيه الفرد قوة تواصل قصوى، بالمعنى الذي يحدده بورديو- أي امكانية الحديث على نحو ملائم في حالات محددة ومعروفة. الموطن هو فضاء يدرك فيه الفرد أن هناك بعض الأشخاص، على الأقل، ممن يمكنه أن يعول عليهم لمساعدته (أفراد العائلة أو الأصدقاء)(غسان الحاج، 2008، ص12-13).

يتم الحديث هنا عن أهمية انتماء الفرد داخل الجماعة، أو عن مفهوم الموطن. فبغض النظر عن هوية الفرد التي تعتبر مكونا أساسيا ومهما، تبرز أهمية هاته الهوية عندما تصبح في اطار الجماعة، فيكون بالتالي بين عنصرين الأول هو الدفاع عن مكانته داخل المجموعة التي تمكنه من الشعور بأنه موجود والثاني هو منح القيمة لانتمائه أو هويته الخاصة. يتم داخل فضاء الموطن تقاسم الإحساس بين الفرد والجماعة برموز وقيم مشتركة تمكنه من الشعور بوجود أشخاص في جانبه لتقديم المساعدة إن احتاجها.

من جهة أخرى، عرف عالم الاجتماع الكندي غي روشيه (Guy Rocher) الثقافة باعتبارها منظومة رمزية للتواصل بين أفراد الجماعة الاجتماعية كيفما كان حجمها، مثلها في ذلك مثل أحد مكوناتها وهي اللغة، وإنها أيضا منظومة للانتساب والانتماء إلى هويات تعمل الثقافة على إنتاجها والمحافظة عليها وتكريسها، إنها القالب الذي ينصهر فيه أفراد الجماعة انصهارا، يكسبهم سمات وخصائص مشتركة في التفكير والإحساس والفعل. ذلك أن الثقافة مجموعة مترابطة من كيفيات التفكير والإحساس والفعل، المتشكلة إلى هذا الحد أو ذاك، والتي تصلح لأن تكون من الأشخاص الذين يتعلمونها ويشتركون فيها جماعة خاصة ومتميزة(عبد السلام حيمر، 2009، ص31-32).

أصبح لكل فرد أسلوب حياة خاص به بدلا من وجود ثقافة عائلية موحدة، ينطبق هذا الأمر على أعضاء الطبقة الواحدة أيضا ذلك أنهم لم يعودوا يمارسون ذوقا واحدا، أصبح بإمكانهم الاختيار من بين بدائل كثيرة من أساليب الحياة. أصبحت هاته الأخيرة ذاتها متحررة من الارتباط بمجموعات معينة، فمثلا الأفراد من مختلف الخلفيات يفضلون أسلوب الحياة الخضراء تعبيرا عن خوفهم على البيئة، أو ربما يختارون ألعابا رياضية معينة أو فريقا رياضيا محددا(هارلمبس وهولبورن، 2010، ص84).

يوجد توتر شديد بين الرغبة بالانتماء الكلي والاستقلالية في صميم كافة الزمر من نادي كرة القدم وحتى الأمة، مرورا بالمنشأة، ولا تعاش هاته التوترات بالضرورة بشكل سلبي وإنما تشكل أيضا

تناقضات يمكن للأفراد أن يلعبوا بها كي يحققوا توازنا مقنعا بين هوياتهم المتنوعة(كاترين آلبيرن وجان كلود روانو بوربالان، 2010، ص10).
تم بناء المكون الإدراكي حول الذاكرات والمعلومات والتمثلات عن الذات كما تشير دلفين مارتينو. ينكب الأفراد على إعادة تأويل متكررة لتاريخهم الشخصي انطلاقا مما تبديه التجارب بخصوص الذات، وذلك كي يجعلوا ذكرياتهم وصورتهم الراهنة عن ذاتهم ملائمة. تشكل الذات بالتالي منظومة تكيفية هائلة حسب تعبير الكاتب، تدافع عن نفسها وتصلح نفسها وتتحسن من أجل تكيف أفضل بل ومن أجل أن تتجاوز ذاتها(كاترين آلبيرن وجان كلود روانو بوربالان، 2010، ص8).
بالتالي، تشكل طقوسيات الذاكرة والثقافة والمعتقدات أحد العوامل المفضلة للتنشئة الاجتماعية ولتشكل هوية الأفراد. تسمح عملية تشكل الهوية الثقافية للفرد بتقدير من الباحثين في العلوم الإنسانية بشكل عام، بضمان التشغيل الجيد لتصوره عن ذاته عن طريق الانضواء في جسم رمزي هو أبدي افتراضا. أوضحت عالمة الاجتماع آن مكسل مثلا ما تتصف به الذاكرة العائلية من تعقيد، فهي ومن خلال وجبات الطعام العائلية والاحتفاظ بالأشياء والحكايات اليومية، تسمح بانخراط الأفراد ضمن سلالة وثقافة مشتركتين(كاترين آلبيرن وجان كلود روانو بوربالان، 2010، ص12).
تحدث علماء الأنثروبولوجيا عن هوية اجتماعية يستمد منها أي مجتمع اختلافاته وتميزاته عن المجتمعات الأخرى. والهوية الثقافية تشمل كل ما هو مشترك بين جميع أفراد المجتمع دون أن يفقد الشيء خصوصيته وتفرده (حورية الخمليشي، 2014، ص123). يتميز مفهوم الهوية الثقافية في حقل العلوم الاجتماعية بتعدد معانيه وانسيابيته (دنيس كوش، 2007، ص148).
تتمحور عناصر الهوية الثقافية حول أدوات وأشكال التعبير التي تربط بين أعضاء الجماعة، وحول تصوراتهم المشتركة للإنسان والعالم والمجتمع، وحول خيالهم الاجتماعي (محمد سبيلا، 2009، ص155). إلا أن مكونات الهوية الثقافية ليست معطيات محايدة وساكنة بل هي أدوات حياة وأدوات صراع، فهي تكتسب معناها وفاعليتها من تأويلها وكيفية استعمالها. وهي ليست معطيات محايدة إلا على المستوى الوصفي(محمد سبيلا، 2009، ص156).
إن تحديد الشكل الثقافي لمجتمع معين يبرز من خلال الطريقة التي نشأ عليها الفرد انطلاقا من القواعد والعادات التي تتبعها الجماعة التي ينتمي إليها، اذن فبتفاعل الفرد مع هاته العناصر تتأثر هويته الفردية بالثقافة التي يعيش في اطارها باعتباره عضوا في المجتمع.
يتميز الفرد بهوية ويتم بناء الذاكرة بالعناصر التي تغذيها بها هاته الهوية، فكون الفرد يعيش هوية آنية، فإنها تصبح ماضيا عندما تتجاوز الزمن الحاضر، وهذا الماضي يترسخ في شكل الذاكرة التي تكون إما فردية على مستوى الفرد أو جماعية عندما يتم تشارك ذكريات حدث من طرف مجموعة. أنتقل لدراسة كيف يكون المعنى في الخطاب.

ثانيا: تأويل المعنى في الخطاب الاجتماعي

تشكل دراسة الخطاب أهمية على المستوى المنهجي، لأن الخطاب يصدر من عالم اجتماعي تتعدد مصادره من مختلف الفاعلين الاجتماعيين وواقعهم المعيش. يتضمن هذا الأخير مجموعة من الأحداث والتفاصيل التي تلعب دورا مهما في إنتاج أو تشكيل صيغة الخطاب هاته.
يعني الخطاب (Discours) لدى لالاند (Lalande): "التعبير عن الفكر وتطوره بواسطة متوالية من الكلمات والقضايا المتسلسلة المترابطة" (عبد السلام حيمر، 2008، ص13). يعتبر علماء الاجتماع أن المواقف والأحداث البسيطة التي يتخذها الناس أثناء عبورهم الشارع العام أو مواجهتهم لأنماط سلوك وثقافات مختلفة في ظاهرها موضوعات مهمة وجديرة بالاستقصاء والبحث المعمق ويعود ذلك حسب أنتوني غدنز إلى ثلاثة أسباب رئيسية. تشكل أسباب التفاعل

الاجتماعي الجانب الأكبر يقول غدنز من أنشطتنا اليومية والروتينية والتي نمارسها عبر بنى وصيغ شعورية وسلوكية معينة(أنتوني غدنز، 2005، ص158-159).
يبرز من خلال التفاعل الاجتماعي أيضا موضوع تقدير الذات. يتم ذلك بفكرة المقارنة التي قدمها كل من تاجفيل وتيرنر، عندما يرى أعضاء الجماعة أنفسهم أنهم جماعة ايجابية بمقارنتهم بالجماعات الأخرى، بتفضيل رؤية الجماعة الداخلية أكثر ايجابية على الخارجية أي التي لا يكون الانتماء إليها (أحمد زايد، 2006، ص21). يجري الجانب الأكبر من تفاعلنا حسب غيدنز من خلال الكلام، أي التبادل العرضي للحديث في سياق غير رسمي مع الآخرين على الرغم من أننا نلجأ إلى التواصل من خلال المؤشرات غير الشفوية في سلوكنا وذلك لإعطاء معنى لتصرفاتنا أو لتفسير المعاني التي ينطوي عليها سلوك الآخرين تجاهنا(أنتوني غدنز، 2005، ص164).
يسهم ربط التفاعل بين الذات والمجتمع في ربط العالمين الشخصي والفردي بعضهما ببعض. كانت هوية المرء في الماضي تتأثر بدوره أساسا بانتمائه إلى جماعات اجتماعية عريضة أو ترتبط بعوامل ذات صلة بالطبقة أو الجنسية. في حين أصبح الأفراد اليوم أكثر حراكا من الوجهتين الاجتماعية والجغرافية. أدى ذلك إلى تحرير الناس وافساح المجال لبروز مصادر أخرى للمعنى لتلعب دورا أكبر في رسم تصور الناس عن هوياتهم(أنتوني غدنز، 2005، ص91).
ساهم هذا الحراك الجغرافي للأفراد في بروز معاني أخرى تسمح بتفسيرات متعددة أو تأويلات معمقة لأفعالهم أو هوياتهم، التي يمكن تفسيرها انطلاقا من غيرتز من التحليل الثقافي لها عبر توصيفات مطولة.
اعتبر غيرتز الكتابات الأنتروبولوجية هي نفسها تأويلات من الدرجة الثانية أو الثالثة على أحسن تقدير، حيث يقول أنه حسب تعريف التأويل الأنتروبولوجي ليس هناك إلا تأويل واحد يأتي في الدرجة الأولى وهو الذي يقدمه ابن الثقافة نفسه، بالتالي فهو يقدم تأويلا لثقافته نفسها (كليفورد غيرتز، 2009، ص101). والنقطة التي تشكل مركز البحث هو عرض ما تحتويه قطعة من التأويل الأنتروبولوجي: أي متابعة المنحى الذي يتخذه الخطاب اجتماعي، وبعبارة أخرى يقول غيرتز تثبيت هذا التأويل في شكل يمكن بحثه والنظر فيه، حيث أن التحليل الثقافي هو تخمين المعاني وتقويم هذا التخمين ورسم استنتاجات تفسيرية من التخمينات الفضلى (كليفورد غيرتز، 2009، ص109-110). وقد بين غيرتز أن التوصيفات المطولة تكتسب أهميتها في مطابقتها لمقتضى الحال وذلك في أنها حسب غيرتز تقدم غذاء لعقل عالم الاجتماع (كليفورد غيرتز، 2009، ص115).
انطلاقا من دراسة الخطاب الاجتماعي، يتم استخلاص المعنى بالقيام بتحليل ثقافي من خلال المنحى الذي يتخذه هذا الخطاب. يعبر هذا الأخير عن هوية الأفراد عبر التفاعلات التي تتم بينهم والتي تنتج معاني.
من جهة أخرى، يعيش الرجال والنساء العصريون حياتهم دون معرفة السبب في الحقيقة. إن الزامية تفسير هاته الأشياء تفرض القول "أنه أمر له معنى" أو "إنه أمر ضروري"، أو "إنه الذي يفعله الأخيار من الناس". لكن ليس هناك شيء طبيعي يتعلق بأي من ذلك لأن الناس لا يفعلون أيا من هذه الأشياء بشكل طبيعي، بل إنهم مجبورون على فعل ذلك باعتبار أن الإنسان يعيش حياة تخضع للعقل اللاواعي أكثر مما تخضع للعقل الواعي(جفري ألكسندر، 2010، ص13).
يقوم الأفراد بالتعرف على واقعهم انطلاقا من الخلفية التي نشئوا بها، وإلى ما يسعون إلى تحقيقه بوجود مجموعة من العوامل التي تؤثر في كل هاته التصرفات، بحيث يمكن القول أن الفرد يقوم

بها بعقل واعي. لكن الطرح المقابل يقضي بأن كل هاته الأفعال مجبر الفرد على القيام بها لأن حياته تخضع للعقل اللاواعي أكثر من الواعي. أناقش الفكرة انطلاقا من فكرة ادغار موران.

يتوفر العقل البشري على طاقات تنظيمية تحتاج لتفعيلها لشروط ثقافية-اجتماعية والتي تتطلب بدورها مؤهلات في العقل البشري لتنتظم. لذلك تساهم البرمجيات الثقافية في توليد معارف العقل/الدماغ والتي قد ولدتها في التاريخ التفاعلات التي تمت بين العقول/الأدمغة. توجد الثقافة في العقول وتعيش فيها كما العقول موجودة في الثقافة وتعيش فيها. يستمر موران ويقول أن عقلي يعرف من خلال ثقافتي وثقافتي تعرف من خلال عقلي، فبالتالي العناصر التي تنتج المعرفة تنتج بعضها بعضا وهناك وحدة تكرارية مركبة بين منتجي المعرفة ومنتجاتها، وهناك أيضا علاقة تجسيمية بين كل عنصر من هذه العناصر المنتجة والمنتَجة. ليحوي كل عنصر العناصر الأخرى وبهذا المعنى كل عنصر يحوي الكل ككل(إدغار موران، 2012، ص29).

كما تمثل اللغة محورا جوهريا للحياة الاجتماعية، ذلك ما استقر عليه رأي علماء الاجتماع منذ زمن بعيد. أصبحت الأشكال والأساليب التي تستخدم بها اللغة محط اهتمام عدد غير قليل من الدارسين من بينهم صاحب المدرسة التفاعلية الرمزية إرفنغ غوفمان ومؤسس المنهجية الإثنوميثودولوجية هارولد غارفنكل (Garfinkel,1984). تشكل المنهجية الإثنوميثودولوجية اتجاها في الدراسة الاجتماعية، تحاول أن توضح كيف يفهم الناس ما يقوله الآخرون ويفعلونه أثناء التفاعل الاجتماعي اليومي، وتهتم هذه المدرسة بالمنهجيات الجمعية أو الشعبية التي يستخدمها البشر في عمليات التبادل والتواصل ذات الدلالة فيما بينهم(أنتوني غدنز، ص164).

تشكل اللغة واقعا علمعقليا، ويجعلها دورها الرئيسي في التنظيم الاجتماعي تغوص في الفضاء الإنساني-الاجتماعي، ثم تعلو وتنتشر في نفس الوقت في الفضاء العقلي الذي ترتبط وتتناغم فيه مع آلات المنطق والتماثل والبراديغم وتشارك في تنظيم كائنات العقل(إدغار موران، 2012، ص242).

ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين اهتمام بعلاقة جديدة لم يتطرق إليها دوسوسير: علاقة ممارسة اللغة بالتغير الاجتماعي، وقد بين تلك العلاقة فلاسفة لغة مثال أوستين وفيتغنشتاين ووينش الذين أكدوا "أن ليست اللغة انعكاسا مباشرا للواقع، ولكنها تمارس وظيفة أكبر من ذلك في تشكيل الحياة الاجتماعية". ثم أسهم باحثون اجتماعيون بعد ظهور الاتجاه البنيوي، في درس الظاهرة اللغوية، فبدأت تظهر أفكار متطورة في هذا السياق، تنسب إلى عالم الأنثروبولوجيا كلود ليفي ستروس وعالم الاجتماع إيرفينغ غوفمان وألفرد شولتزر، وما زالت المناهج الاجتماعية ترتقي وتتطور في نظرتها إلى اللغة، فظهرت آثار التطور السياقي على يد بورديو وغيدنز وهابرماس(عبد الرحمان بودرع، 2015، ص7).

بالتالي، تشكل اللغة دورا في حياة الفرد أو واقعه أو حياته الاجتماعية. تستند تأويلية الخطاب بالنسبة إلى ريكور وفي سياق تمييزه بين اللغة والخطاب، إلى أربع سمات (محمود أحمد عبد الله، 2009، ص29) أساسية:

-الخطاب هو تحقيق دائم زمنيا وفي الحاضر، بينما نظام اللغة تقديري وغريب عن الزمن. ويسمي ذلك إميل بينيفست ب "إلحاح الخطاب".

-لا تتطلب اللغة أي ذات، في حين يحيل الخطاب على متكلمه بفضل مجموعة من أدوات الوصل كالضمائر. ولذلك نقول أن إلحاح الخطاب مرجعي ذاتي.

-بينما تحيل علامات اللغة على علامات أخرى داخل النظام نفسه، وتستغني اللغة عن العالم، كما تستغني عن الزمنية والذاتية، يكون الخطاب دائما على صلة بموضوع ما يحيل على عالم يتوخى وصفه، والتعبير عنه وتشخيصه. لهذا لا تتحقق وظيفة الكلام الرمزية إلا في الخطاب.

-لا تعتبر اللغة سوى شرط للتواصل الذي تقدم به أنساقا ما، لا يتم تبادل الإرساليات إلا في الخطاب. وبهذا المعنى لا يملك الخطاب وحده عالما فقط، بل آخر مخاطب إليه يتوجه. وهذه السمات مجتمعة لديه تجعل من الخطاب حدثا(ريكور، 2001، ص142).

يمتاز الخطاب إذن بأربع سمات هي زمنيته، إذ ينفصل عن الزمن، لا يرتبط به، الموضوعية، في حال يثبت بالكتابة والتدوين ومؤلفه غائب عند القراءة، وموجه نحو عالم محتمل، ثم أخيرا آخريته، حيث يتوجه نحو مخاطب. بذلك، هذا هو جدل التنافذ والإبعاد لدى ريكور إذ يباعد بين النص المكتوب ومؤلفه بغية التوصل إلى قراءة تأويلية علمية تتحرى النص في مدونته اللغوية، كما يباعد بين المؤلف والمخاطب ممثلا في القارئ، جاعلا من النص أثرا مفتوحا على التعدد الدلالي ويفصل بين عالم النص الحالي وعالم النص المحتمل، لما يرى في النص متجاوزا لزمانه على نحو يتمكن فيه من تجاوز أفق المعنى القائم إلى أفق المعنى في المستقبل(محمود أحمد عبد الله، 2009، ص29-30)

لا يقتصر الخطاب الاجتماعي على التحليل اللغوي للنصوص المحكية والمكتوبة، ولكنه يتجاوز ذلك إلى أن يصبح أيضا خطابا تحليليا نقديا يهتم بالاستمرارية والتغيير، ويتضمن التفاعل الخطابي (Interdiscursive Analysis) أي ينطلق من معالجة النصوص من أنواع الخطاب والنصوص المنجزة في المجتمع، والتي تفيد ظاهرة معينة من ظواهره. إن الخطاب رؤية معينة للغة المستخدمة في المجتمع أو طريقة في التعبير اللغوي عن الفعل الاجتماعي، وهو بهذا المعنى عنصر يشارك في تكوين الأحداث الاجتماعية ويسهم في إحداث تغيير في معارف الناس ومواقفهم وقيمهم، إذ أن النصوص التي تخاطب المجتمع خطابا اجتماعيا محددا كالدعايات والإعلام وغيرها كلما عايشها الناس وألفوها أثرت في أذواقهم وهوياتهم(عبد الرحمان بودرع، 2015، ص15-16).

اجتهد العديد من الباحثين في العلوم الاجتماعية بشكل مستمر لتجاوز دراسة الخطاب بوصفه متنا يتشكل من بنية لغوية وما دفعهم لذلك هو دراسة الخطاب بوصفه ظاهرة اجتماعية. ركز هؤلاء الباحثون بذلك على الاعتبارات الخارج لغوية، أي على الرهانات والسياقات التواصلية التي يفرضها السياق على مختلف الفاعلين الاجتماعيين عند إنتاجهم لخطاب ما مفترضين بذلك أن الأحداث والوقائع تبنى اجتماعيا في ظل شروط وسياقات هي بذاتها اجتماعية. يظهر في العديد من الدراسات والأبحاث التي حاول من خلالها أصحابها أن يبينوا مدى تأثر الخطاب بسياق انتاجه، الكشف عن الطابع العلائقي الذي يجمع الخطاب مع ما يسميه ميشيل دوبري بمناطق الوضعيات"، وذلك في محاولة منهم لفهم مختلف الخطابات انطلاقا من تقديم فهم موضوعي للسياقات التي تنتج فيها (Dobry Michel,1987, p84)(أمغار مولود، 2017، ص244).

دفعت دراسة الخطاب بوصفه ظاهرة اجتماعية بالعديد من الباحثين في العلوم الاجتماعية أن تتناسب خطاباتهم وطبيعة السياق. تشكل الوضعية التي يتخذها الأفراد في سياق معين انطلاقا من نظرية "سياق الحال" Context of situation تدفعهم إلى اختيار بعض المعاني التي يعتقدون أنها تتلاءم أكثر من غيرها مع وضعياتهم الاجتماعية والاقتصادية ومع السياق الذي يتحدثون فيه. إن أكثر ما يدفع الأفراد إلى الأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يوجدون فيه، يرجع بحسب للويد بيتزر Lloyd Bitzer إلى المخاطر التي تهددهم إذا لم يراعوا وضعياتهم في السياق الذي ينتجون فيه خطاباتهم(Lloyd Bitzer, 1992, pp1-14)). عمل السوسيولوجي البريطاني باسيل برينشتين تأكيدا على أهمية السياق على تبيين أن العلاقات الخطابية والتواصلية بين الافراد ما هي إلا انعكاس لعلاقاتهم الاجتماعية، وذلك من منطلق الافتراض أن السياق يؤثر في اختيار الأفراد لخطابهم، وعلى كيفية قولهم لهذا الخطاب. يعزز برينشتين طرحه هذا بتقديم مجموعة من الوضعيات التي توضح بشكل يصعب دحضه الكيفية التي يغير بها الأفراد من لغتهم وخطاباتهم

بمجرد تغيير السياق، وكمثال على ذلك يقول أن الإنسان الراشد، عندما يتحدث إلى طفل يستخدم خطابا يتألف من جمل ومفردات بسيطة نسبيا بالمقارنة مع التي يستخدمها مع من هم في سنه(أمغار مولود، 2017، ص245).

يرى غدنز أنه كثيرا ما نستخدم أنماط التفاهم هذه بصورة عادية من دون وعي، باعتبار أنه في كل لقاء بيننا وبين الآخرين، يتمثل جانب من معنى التفاعل بيننا فيما نتفوه به من كلمات، بينما يكمن الجانب الآخر في الأسلوب الذي يتشكل فيه القول في السياق الاجتماعي(أنتوني غدنز، 2005، ص164).

يمكن اعتبار الفرد متغيرا تابعا ومستقلا في نفس الوقت، تابع لأن التفاعلات مع مجتمعه تكسبه تجربة وفي نفس الوقت تحده، ومستقل انطلاقا من هويته الفردية، فهو ينتمي إلى ثقافة تقدم له نوعا من الانتماء والذي يمكن أن يستغله لصالحه ولو بشكل جزئي من الاستقلالية ليطور هويته من خلال رؤيته الخاصة ومعارفه المكتسبة، وبالتالي تنعكس هويته على أسلوب خطابه.

تمثل الأساليب الخطابية بنى ثقافية رغم أنها تكبح جماح الحركة بقوة فإنها تمنحها القدرة في نفس الوقت ولا يستطيع الإنسان فهمها. تتجلى هنا مهمة علم الاجتماع الثقافي في الإتيان بالبنى الثقافية غير الواعية التي تنظم المجتمع إلى ضوء العقل وقد يغيرها الفهم دون أن يقضي عليها، ذلك أن المجتمع بدون مثل هذه البنى لا يستطيع أن يحيا. وضع علم الاجتماع دائما في تصوره عدم الإدراك الكامل للرجال والنساء في تصرفاتهم والذي يرجع إلى قوة البنى الاجتماعية ذات التأثير الأوسع والأقوى والتي يستجيب لها الناس متحمسين مختارين، واذا قبلوا بها دون معرفة السبب فذلك من أجل المعنى(جفري ألكسندر، 2010، ص14).

يقول غيرتز أن من خصائص التأويل الثقافي كونه يتطلب البقاء أقرب إلى أرض الواقع عكس العلوم الأخرى، يعتبر أن المقاربة السميائية للثقافة هو فتح الطريق إلى العالم المفهومي الذي تعيش فيه موضوعاتنا لإقامة محادثة معها(كليفورد غيرتز، 2009، ص117). حيث تتخذ عملية التحليل الثقافي شكل منحى صاعد تتراكم فيه المكتشفات بشكل مستمر وشكل اندفاعات غير متصلة مع أنها مترابطة في سياق متوال من الحلقات التي تزداد جرأة مرة بعد مرة(كليفورد غيرتز، 2009، ص118).

بالنسبة للخاصية الثانية للنظرية الثقافية هي كونها ليست ذات صفة تنبؤية(كليفورد غيرتز، 2009، ص120). يجد غيرتز أن الإطار الذي يتم فيه التأويل يجب أن يكون قادرا باستمرار على تقديم تأويلات يمكن الدفاع عنها بينما تتبدى للعيان ظواهر اجتماعية جديدة(كليفورد غيرتز، 2009، ص121). ومنه يتطلب الأمر الكشف عن الدلالات الكامنة خلف أفعال الأشخاص الذين نتابعهم وبالتالي بناء نظام للتحليل تبرز في اطاره المميزات المكونة لهذه البنى، أي ما يتعلق بوصفهم ما هم عليه، وذلك بهدف استخلاص استنتاجات كبرى من وقائع صغرى كثيفة النسج، بحكم أن أشكال المجتمع تشكل مادة ثقافية.

تستخدم في علم الاجتماع عدة أطر نظرية متعددة الأطراف لتفسير الواقع الاجتماعي. وتختلف هذه النظريات فيما تقدمه من تفسيرات للظواهر الاجتماعية، غير أنها تشترك في افتراضها أن الواقع الاجتماعي قائم بصورة مستقلة عمن يعيشون فيه أو يحاولون تفسيره. لا يتفق جميع علماء الاجتماع على هذا الافتراض. فالمدرسة التصورية الاجتماعية ترى في مقاربتها النظرية أن ما يدركه الأفراد والمجتمع ويفهمونه باعتباره واقعا قائما إنما هو بحد ذاته وليد التفاعل الاجتماعي بين الأفراد والجماعات. ومن هنا فإن محاولة "تفسير" الواقع الاجتماعي تغفل وتشيء (أي تعامل الشيء باعتباره حقيقة مفروغا منها) وتتجاهل العمليات التي يجري من خلالها بناء الواقع. وترى المدرسة التصورية الاجتماعية على هذا الأساس أن على علماء الاجتماع أن يوثقوا ويحللوا هذه العمليات، لا أن يقتصروا على مفهوم الواقع الاجتماعي الناجم عنها. (أنتوني غدنز، ص168)

يتشكل الواقع الاجتماعي من الأفراد والجماعات في تفاعل فيما بينهم، يكون وليد هذا التفاعل واقع قائم يفهمه كل من الأفراد والمجتمع حسب المدرسة التصورية الاجتماعية، يجب انطلاقا منها توثيق وتحليل العمليات التي يجري من خلالها بناء الواقع. اذا كان ما يدركه الفرد والمجتمع ويفهمونه باعتباره واقعا هو بحد ذاته وليد التفاعل الاجتماعي بين الأفراد والمجموعات، فانطلاقا من هاته المدرسة يجب القيام بعملية تأويل لما ينتج عن هذا التفاعل أو معرفة المعنى الذي يمنحه الأفراد لما قاموا به من أجل الوصول إلى هذا الواقع.

يتكون فعل الفرد انطلاقا من خلفية تتأثر بالثقافة التي يعيش في اطارها. تشمل هاته الثقافة مجموعة من التفاصيل التي يبرز أثرها أولا على الخطاب الناتج عن الفرد، ثم ذاكرته باعتبارها رابط بين مجموعة من الأحداث التي عاشها والتي يمتزج فيها ما هو عقلاني منطقي، وما تكون انطلاقا من المشاعر والأحاسيس لينتج بالتالي المعنى. دون أن ننسى عندما يصبح هذا الفرد بين أفراد مجموعة أو مجموعات، فتتعدد الذاكرات رغم امكانية الاشتراك في ثقافة في خطوطها العريضة، إلا أن كل هاته النقط تترك أثرا وقد تغير مسار الفعل، بالانتقال من هوية الفرد إلى هوية اجتماعية.

وجب حسب فاركلوف اقامة تمييزات ضمن الهوية الاجتماعية تقود إلى انشاء مفهوم عملية الفعل. تبنى فاركلوف منظور آرتشر (Archer) الذي يقضي بأن الناس يتموقعون لاإراديا كفاعلين أولين بحسب الحال الذي يولدون عليه. وترتبط قدرتهم بتغيير مواقعهم بمدى قدرتهم على التفاعل والتحول إلى فاعلين متعاونين قادرين على الفعل الجماعي وبلورة التغيير الاجتماعي. (نورمان فاركلوف، 2009، ص298).

لكن بالرغم من أن الأفراد يولدون على حال، وقبل تغييرهم لمواقعهم انطلاقا من مدى قدرتهم على التفاعل في اطار الفعل الجماعي، فإنه يمكن لكل فرد أن يغير موقعه من خلال تعدد هوياته التي تمكنه من اختيار مكان تموقعه اجتماعيا.

وضع فاركلوف العلاقة بين الهوية الاجتماعية والهوية الشخصية ضمن منظور منطقي جدلي وذلك بين النمو المكتمل للناس كفاعلين اجتماعيين واكتمال نموهم كشخصيات، وليس أي من هذين النموين في نظره مضمونا. اعتبر أن المرء يصبح شخصية عندما يستطيع صياغة اهتماماته الأولية وتحديد أهدافه النهائية ويتمكن من اقامة توازن بين أدواره الاجتماعية وترتيبها وفق الأولوية بالاستناد إلى تلك الاهتمامات والأهداف. ووجد فاركلوف أن هذه الصيرورة في حد ذاتها مقيدة اجتماعيا: اذ تقيد الهوية الاجتماعية الهوية الشخصية. هذا التقييد الذي يشكل جزءا من العلاقة المنطقية الجدلية بينهما(نورمان فاركلوف، 2009، ص298).

عندما يختار الفرد الانتماء إلى هوية اجتماعية معينة تتراجع هوياته الأخرى من جهة وتنسجم خصائص هويته في اطار الهوية الاجتماعية التي اختارها من جهة أخرى، فيصبح التكلم بالتالي عن هوية اجتماعية واحدة لها خصائص معينة عوض هويات الأفراد الذين يندرجون في اطار هاته الهوية.

خلاصة:

تشكل الهوية توازنا بين الذات والآخر عبر روابط اجتماعية تمكن من إنتاج الواقع الذي يتشكل من وقائع ورموز وقيم و معايير تساهم في إنتاج المواقف. تنتج الهوية في اطار الانتماء للجماعة الاجتماعية مجموعة من المعاني انطلاقا من أفعال الأفراد التي يتم الكشف عن الدلالات من ورائها بالقيام بالتأويل المكثف مع البقاء أقرب إلى أرض الواقع.

تندرج أفعال الأفراد ضمن أساليب خطابية تتم في اطار الثقافة التي تعيش ضمنها المجموعة. بالتالي وانطلاقا من هاته الأساليب الخطابية يتم شرح التعبيرات الاجتماعية من خلال تأويلها واستخراج المعنى الذي تؤول إليه.

كما تعتبر الذاكرة مهمة في تشكيل الهوية ومشاعر انتماء الأفراد إلى جماعاتهم من خلال الأحاسيس التي تربط بينهم وبين الفضاء الذي تنتسب إليه هاته الجماعات. تتجلى أهمية الذاكرة في دورها في إنشاء المعنى من خلال مجموعة من العوامل المرتبطة بها، كالثقافة والقيم والجماعة الاجتماعية والتجارب التي تمر منها أو التي تحتفظ بها. تصبح بالتالي أحد عوامل ارتباط الأفراد بمكان انتمائهم وبلورة هوياتهم.

يتمتع الأفراد باعتبارهم فاعلين داخل المجتمع وبالإضافة إلى هوياتهم الفردية، بهوية اجتماعية تتحدد حسب تموقع كل فرد داخل المجتمع. بالتالي، فإن تعدد الهويات يجعل الفرد في مجال من الاختيار أو خلق التوازن بين اختيارات متعددة لجعل ذاكرته خالية من التعقيد، كما أن هويته الفردية في اطار انتمائه داخل الجماعة، تسمح له بتكون ذاكرة ثقافية ملائمة مع تجاربه وتمكنه من الإحساس بمشاعر وأحاسيس تحافظ على خصوصيته.

قائمة المراجع:

1. ألكسندر جفري(2010)، معاني الحياة الاجتماعية–نحو علم اجتماع ثقافي، الناشر أكاديميا إنترناشيونال.

2. الحاج غسان (ربيع 2008)، الهجرة ودور الذاكرة والطعام في عملية إنشاء موطن، إضافات المجلة العربية لعلم الاجتماع، ع(الثاني)، مجلة أكاديمية فصلية محكمة تصدر عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية.

3. الخمليشي حورية(صيف 2014)، الهوية و الذاكرة و رهانات الكتابة، ع(الرابع)، يتفكرون فصلية فكرية ثقافية.

4. بودرع عبد الرحمان (2015م 1436ه.)، في تحليل الخطاب السياسي قضايا ونماذج من الواقع العربي المعاصر، (الطبعة الأولى)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

5. حيمر عبد السلام (تشرين الثاني/ نوفمبر 2008)، في سوسيولوجيا الخطاب من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولجيا الفعل، ط(الأولى)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

6. حيمر عبد السلام (2009)، في سوسيولوجيا الثقافة والمثقفين من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل الاجتماعي ومن منطق العقل إلى منطق الجسد (أو التطبع)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

7. رحومة عادل بن الحاج (شتاء 2010)، تنشئة الهويات الفردية عند الشباب عبر الفضاءات الاتصالية والمعلوماتية، إضافات المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد التاسع، مجلة أكاديمية فصلية محكمة تصدر عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية.

8. زايد أحمد (أبريل 2006)، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات- قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات-، ع(326)، سلسلة عالم المعرفة.

9. سبيلا محمد (2009)، مدارات الحداثة، ط(الأولى)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

10. عبد الله محمود أحمد (خريف 2009)، تأويل الفعل الاجتماعي عند بول ريكور قراءة نقدية، إضافات المجلة العربية لعلم الاجتماع، ع(الثامن)، مجلة أكاديمية فصلية محكمة تصدر عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية.

11. غدنز أنتوني(2005)، علم الاجتماع مع مدخلات عربية، ط(الرابعة)، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان.

12. غيرتز كليفورد (2009)، تأويل الثقافات، ط(الأولى)، بيروت.

13. طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ وميغان موريس(أيلول سبتمبر 2010)، مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ط(الأولى)، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.
14. فاركلوف نورمان (كانون الأول ديسمبر 2009)، تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ط(الأولى)، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
15. كاترين آلبيرن وجان كلود روانو بوربالان(2010)، الهوية والهويات الفرد، الزمرة، المجتمع، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق.
16. كوش دنيس(آذار مارس 2007)، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ط(الأولى)، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية.
17. موران إدغار (كانون الأول ديسمبر 2012)، المنهج الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها، و تنظيمها، الجزء (الرابع)، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان.
18. هارلمبس وهولبورن(2010)، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، ط(الأولى)، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع.
19. Vincent de GAULEJAC « IDENTITÉ ». http://www.unige.ch/fapse/SSE/teachers/cifali/cours/Vocabulaire_psychosociologie/identite_degaulejac.pdf